

المدائح والتهاني والرناء

في شعر المغفور له حافظ بك ابراهيم

لهوستان محمد البسي

المدرس بدار العلوم

عهدت إلى لجنة الاحتفال بالكلام في هذه الفنون الثلاثة من شعر حافظ ، وإذ كان مجال القول ذا سعة والوقت لا يتسع للبحث الضافي - آثرت أن أجمل الكلام إجمالاً يقوم بالغرض ولا يطغى على الزمن ، ويكشف جانباً من عبقرية شاعر النيل .

المدح: - نشأ حافظ نشأة عسكرية ، نزاعاً إلى الحرية ، في نفسه إباء وهمة ، فكان أفق مديحه محدوداً ، لا يثر المدائح هنا وهناك ، فقصر مدائحه على أصدقائه ، ومن رآهم موضع نجواه وبحل آماله . ومن آزره في الشدة ، ومن شاطره فكرته الوطنية وكان لهم في نهضة مصر ومكافحة الظلم أثر ظاهر ، ومدح رب الخلافة إذ كانت يوماً ما معقد رجاء البلاد ، وكأنما أراد بذلك أن يتصل بعرش الآستانة حين أخذ عليه (شوقي) طريق الاتصال بعرش مصر ، وكان طبعياً أن يمدح سمو الخديو ، فدحه في مناسبات كثيرة ، ونوه في مدائحه له بشاعريته المغبونة . وأكثر فيها من شكوى جده العاثر ، من ذلك قوله من قصيدة رفعت إلى سمو الخديو في يوم عيد :

طف بالآريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن داني
يا عبيد ، ليت الذي أولاك نعمته بقرب صاحب مصر ، كان أولاني
على أن مدائحه تتفاوت في قوتها وتأثيرها ؛ فما كان منها لصديق أو معقد رجاء كان فياضاً بالعاطفة ، جياشاً بتخلجات النفس ومظاهر عرفان الجليل ، وما عدا هذا فأكثره من المدائح الفنية التقليدية البارعة ، همه فيه أن يسجل المفاخر ويصورها في صور شعرية خلابة ، يجليها في أحسن صورة ، ويسبغ عليها من

فه الخصب ثوباً من الرواء والبهجة ، فتزل من الشعر في مكان رفيع .
ولعل من أمتع مدائحه وأحفلها بالعاطفة الصادقة قوله في الأستاذ الإمام
الشيخ محمد عبده ؛ وصلته به ما تعلم :

أنت نعم الإمام في موطن الرأ (م) ي ، ونعم الإمام في المحراب
خشع البحر إذ ركب جوار (م) به خشوع القلوب يوم الحساب
وبدا ماؤه كخاطرك المص (م) قول أو كالفرند أو كالسراب
يتجسلى كأنه صف الآ (م) رار منشورة ليوم الحساب
علمت من تقل فانبعث لا (م) قصد مثل انبعثاته للثواب
فهى تسرى كأنها دعوة المض (م) طر في مسيح الدعاء المحجـاب
وقوله في صديقه عميد الأسرة الأباطية المرحوم (سليمان باشا أباطه) من
قصيدة مزج فيها المديح بالتهنئة :

سليمان ، ذكرت الزمان وأهله بعز سليمان وإقبال دنياه
إذا سرت يوماً حذر النمل بعضه مخافة جيش من مواليك يفشاه
وإن كنت في روض تغت طيوره وصاحت على الأفان : يحرسك الله
التهاني : - نظم حافظ في التهنئة فأكثر ، فهو يهني أصدقائه ، ويهني دولة
الخلافة ورب الخلافة ، ويهني سمو الخديو ، ويهني الأمة في مناسبات شتى :
كإقبال العام الهجرى . وشأنه في التهنئة يقرب من شأنه في المدائح ، فمن النوع
الذى امتزج فيه جمال الفن بتدفق العاطفة ، قوله في القصيدة السابقة يهني المرحوم
سليمان باشا أباطه بإبلاله من مرضه :

لبست الشفا ثوباً جديداً مباركاً فالبستنا ثوباً من العز نرضاه
وكان عليك الدهر يخفق قلبه فلا شفاك الله أهدأت أحشاه
وهنا جديده الزمان وأصبحت تسوق لنا الأيام ما تمناه
سليمان ، دُم مادامت الشهب في الدجى وما دام يسرى ذلك البدر مسراه
ويلوح للناقد البصير أن حافظاً ما كان يحفل كثيراً بالتهاني الفردية ، أو
بعبارة أخرى : ما كان يجد في نفسه ميلا فطرياً إليها ، ولعل هذا سر ما نراه من

التفاوت البين بين تهانته ، فتراه حين يهني صديقه الحميم (سليمان باشا أباطه بالابلال من المرض ويزواج ابنه علي) يطيل في الغرض الأول بعض الإطالة ، ويسكب عليه روحاً من عواطفه ، ثم يجتزئ في الغرض الثاني بيت واحد (١) لا يخلو من الضعف ، كما نرى بحافظ يرى إبلال الصديق العظيم لا تقف جدواه عند المنأ وحده ، أما الزواج فيعتبره من الشؤون الفردية الخاصة فيقف فيه عند النظرة العجلى ، وقد رأينا حافظاً إذا تناول التهاني العامة خب فيها ووضع ، وافق فيها وأبدع ، وأطال ما شاء له البيان المطاوع ، من ذلك تهانته للأمة الإسلامية بالعيد الهجرى . ولأمة العثمانية بعيد الحرية والدستور ، فقد جلاها في صورة بديعة ، وبيان رائع ، وقواف قوية سليمة ، وشاعرية عربية صميعة ، ذلك بأنه كان يتخذ منها سيلاً واضحاً إلى بث أفكاره السياسية ، وميوله الوطنية ، وأفكاره الاجتماعية ، وحافظ شاعر سياسة ووطنية واجتماع ، قبل كل اعتبار آخر .

وقد ينجح حافظ إلى الدعاية اللاذعة في تهانته الفردية ، كما فعل مع صديقه المرحوم حفى بك ناصف حينما رقى إلى منصب المفتش الأول للغة العربية ، فقد هنا حافظ في حفل أقيم لتكريمه بقصيدة فكاهية طويلة مطلعها :

يا يوم تكريم حفى أرهفت للشعر ذهنى

وفيها :

وذقت من (جاء زيد) ومن حواشى الشعنى

ومن حواشى الحواشى على متون ابن جنى

ما لم تذقك الليالى قلبن ظهر المجن

مفتش وفقيه وشاعر وابن فن

وتكاد التهاني في شعر حافظ تتصل بالمدائح ، فحسبنا منها ما تقدم .

المراثى :

أما الرثاء فهو الفن الذى أبدع فيه حافظ أيما إبداع ، فصال فيه وجال ، وبكى

(١) هو قوله :

وكن لعل بهجة العرس ، إنه بعزك فى الأفراح تمت مزاياء

فيه واستبكي، ووفى به لإخوانه فأكمل الوفاء، ورتى فيه عظام مصر من الساسة والمصلحين نخلد ذكراهم، وأجرى على الدهر سيرهم، واتخذ من مرائهم منبراً يهتف من فوقه بشباب الأمة: أن سيروا إلى المثل الأعلى، فساروا في ضوء أولئك العظماء الراحلين، وسلكوا طريقهم فوصلوا بمصر إلى ما وصلت إليه.

إن مصر لمدينة إن حد كبير لذلك الشاعر الفحل الذي وفي عظماءها حقهم، فرقى وأحسن الرثاء، وكرم فأحسن التكريم، ومن يستطيع أن ينكر مرأى حافظ للأستاذ الامام والبارودي ومصطفى وفريد وسعد زغلول ومحمود سليمان وسواهم من كل هاتف بمجد مصر، وداع إلى الإصلاح فيها؟

وإن الأدب العربي لمدين لشاعر النيل بتلك المرائى العذبة الخالدة، التي نفثها سحراً حللاً، فلهج بها أبناء العربية في مصر والشرق، فكانت مادة بيان لا ينضب، واتخذ منها الشعراء الناشئون مثلاً يحتذى. أي بيان ذلك الذي أسعف حافظاً في رثاء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده إذ يقول:

أيا منزلاً في عين شمس أظنني وأرغم حسادي وغم عدائي
دعائمه التقوى، وآساسه الحجا، وفيه الأيادي موضع اللبانيات
عليك سلام الله، مالك موحشاً عبوس المغاني مقفر العرصات؟
وأى بيان، وأى وفاء ألهاه، برثاء صديقه الكريم عثمان بك أباطه إذ يقول:
ياراحلاً أكبرتك الحادثات، وما أكبرتها عند تليين وتشديد
أبكيت حتى العلا والمكرمات وما جفت عليك مآقي الخرد الخود
بنى أباطه، لا زالت دياركم أفق الديار وغاباً للصناديد
وأى وفاء بعد وفاء حافظ، وأية ديباجة خير من ديباجته، حين يرثى صديقه العظيم سليمان أباطه باشا فيقول:

لا تحملوه على الرقاب، فقد كفى ما حملت من سنة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه يسرى به للروضة الفيحاء
تالله لو علمت به أعواده مذ لامسته لأورقت للرأى
خلق كضوء البدر، أو كالروض، أو كالزهر، أو كالخمر، أو كالماء

وشبائل لو ما زجت طبع الدجى ما بات يشكوه المحب النائي
ومحمد نسجت له أكفانه من عفة وسباحة وإياه
ثم أى توفى فى الرناء، وأية رصانة فى البيان فوق ما جاء به حافظ حين
رثى الزعيم العظيم سعد زغلول فى بانيته المشهورة التى يقول فيها :

يا كبير القواد والنفس والآ (م) مال أين اعترمت عنا الذهابا
كيف تنسى موافقاً لك فينا كنت فيها المهيب لا الهيا
كنت فى ميعة الشباب حساما زاد صقلا فرنده حين شابا
لم ينازعك قارح القوم إلا كنت أقوى يداً وأعلى خبابا
عظم لو حواه كسرى أنوشر وان يوماً لضايق عنه إهابا
وعلى الجملة فإن مرأتى حافظ تمتاز بالوفاء واللوعة والحزن العميق كلما
تناول رثاء صديق له، أو ذى منه عليه، وبالعاطفة الوطنية المحتدمة كلما رثى
عظيماً أسدى لمصر جيلاً، وفى كلها رصانة وانسجام، وطبع عربى سليم، وميل
إلى تسلسل المعنى حتى لتكاد مرأيتى فى تماسك أجزائها تحقق ما يدعون إليه من
وحدة القصيدة، كرنثانه لباحثه البادية إذ يقول :

ملك النهى لا تبعدى فالخلق فى الدنيا سير
ربى أبوك الناشئين فعاش محمود الأثر
وسلكت أنت سبيله فى الناشئات من الصغر
ريبتين على الفضة (م) لة والتصون والحفر
وعلى اتباع شريعة نزلت بها آى السور
فليتكم فضل على (م) أحياء أنى أودكر

وبعد فإن من الظواهر التى عرقتها من دراسة مرأتى حافظ، فلة الحفل بالفلسفة
العميقة فى البحث عن معنى الموت، والبحث عما وراء الحياة — كما كان يفعل
شوقي — ومن الظواهر الشائعة فى فنونه الثلاثة، عنايته بمطالع القصائد، فتراه
يركز معنى القصيدة فى مطلعها، ثم يتأنق ويتسامى فى حسن صياغته، فيرسله قوياً

شروداً ينتزع الإعجاب من سامعيه ، ويحملهم على تتبع القصيدة إلى نهايتها ،
ولعل هذا من أسرار فنة الناس بشعر حافظ .

وإليكم بعض مطالعه الرائعة :

بدأ مطولته في مهرجان شوقي بقوله :

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى بشعر أمير الدولتين ورجعى

وتهنته للعثمانيين بعيد الحرية بقوله :

أجل ، هذه أعلامه ومواكبهم هنيئاً لهم ، فليسحب الذيل ساحبه

وتهنته لسمو الخديو بأداء فريضة الحج بقوله :

متى نلتها يا لابس المجد معلماً ؟ أدينياً ودنياً زادك الله أنعماء

ورثاه لمصطفى كامل باشا بقوله :

أيا قبر ، هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل والقي ضيفك جاثياً

ورثاه لسليمان باشا أباطه بقوله :

لا والاسى وتلهب الأحشاء ما بات بعدك معجب بوفاء

ورثاه للبارودى باشا بقوله :

ردوا على ياتى بعد محمود إني عيت وأعي الشعر بمجھودى

ورثاه لمحمود باشا سليمان بقوله :

مسدى الجميل بلامن يكدره ومكرم الضيف أمسى ضيف رضوان

وأخيراً بدأ رثاء نفسه بقوله :

آذنت شمس حياتى بالمغيب ودنا المورد يا نفسى فطيبى

وظاهرة أخرى فيما درست من شعر حافظ ، هى أنه لا يحفل بالمقدمات

الشعرية ، بل يهجم على الموضوع لأول وهلة ، وكان يرى فى تلك المقدمات

الغزلية والخرية نوعاً من التكلف والقصور ، ويرى أنها لا تليق بمدائح العظماء ،

وإلى ذلك يشير فى قصيدة يهني بها سمو الخديو بأحد الأعياد :

أزف فيه إلى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان

من الأوانس جلأها يراع قى صافى القريحة صاح غير نشوان

ما ضاق أصغره عن مدح سيده ولا استعان بمدح الراح والبان
ولا استهل بذكر الغيد مدحته في موطن بجلال الملك ريان
هذا، وأما أسلوب حافظ في هذه الفنون الثلاثة فهو في جملته عربي قديم،
مطبوع سليم، تبدو فيه سعة الاطلاع، وغزارة المحفوظ، وخصب الشعاعية،
ويظهر في كثير من قصائده حسن الاحتذاء، والتلطف في معارضة فحول
المتقدمين.

فاذا كان حافظ في مقاصده وأغراضه عصرياً يعيش لعصره، فهو في
أسلوبه وديباجته شاعر قديم رقيق الحواشي.
رحم الله شاعر النيل، وخلد على الدهر ذكره!

محمود البسيبي

